آراء وأنباء

الأستاذ محمد أحمد دهمان

(١٨٩٩ ـ ١٩٨٨ م)

الدكتور شاكر الفحام

الأستاذ محمد أحمد دهمان ، رحمه الله وأسبغ عليه واسع رضوانه ، وجهٌ مشرقٌ من وجوه هذه الجمهرة الكريمة من علماء دمشق الذين تفتحت نفوسُهم لمبادئ النهضة العربية التي دعا اليها الروادُ الأوائل وعملوا لها وضَحّوْا من أجلها .

نشأت هذه الجمهرةُ الفتية في ظلال الدعوة العربية : يملأ الايمانُ قلوبهم ، وتعمر الحماسةُ صدورهم ، ومضوا يبشرون بفجر العروبة الذي طال تطلعُهم اليه ، وعمل كلٌّ منهم في الميدان الذي يُتِّرَ له ، ليعود للعروبة مجدُها الزاهر ، وللعرب حضورُهم في ساحة التاريخ ، ومشاركتُهم في صنعه .

ولد الأستاذ محمد دهمان سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ) في حارة الشطي بحي العمارة بدمشق فرعاه والده الشيخ أحمد دهمان (١٨٤٤ـ ١٩٢٧م)، وكان من قراء دمشق وعلمائها ، قد أتقن القراءات العشر ، وعُني بالتعليم ، وافتتح مكتبا لتعليم الأولاد في المدرسة العادلية الصغرى[1] .

وتعلم الأستاذ دهمان القراءة والكتابة وهو في نحو الثامنة من عمره ،

☆ ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين الأستاذ محمد أحمد دهمان الذي أقامته وزارة الثقافة في مكتبة الأسد مساء يوم السبت ٢٣ / ٤ / ١٩٨٨ م (٦ رمضان ١٤٠٨ هـ) .

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ١ : ٤٠٦ ـ ٤٠٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فألحقه أبوه بمكتب الشيخ عبد القادر المبارك (١٨٧٨ ـ ١٩٤٥ م)[٢] ، فأمضى فيه سنتين ، لينتقل الى المدرسة الجقمقية فيقضي فيها أربع سنوات ، أهّلته ليقرأ بعد ذلك على شيوخ عصره في حلقاتهم العلمية .

ويذكر الأستاذ دهمان من شيوخه الذين أفاد منهم الشيخَ أبو الخير الميداني (١٨٧٥ ـ ١٩٦١ م)[٣] الذي تعلم على يديه في المدرسة الجقمقية ، والشيخَ محمد القطب (ت ١٩٢٧ م)[٤] الذي قرأ عليه بعد عهد الطلب . أما الشيخُ الذي ترك في نفسه أبلغ الأثر فهو الشيخ عبد القادر بدران (١٨٤٨ ـ ١٩٢٧ م) مهذّب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ومؤلف كتاب منادمة الأطلال ومسامرة الخيال[٥] .

عرف الشيخ بدران بالعلم الواسع والعقل النير وحب الاصلاح . دعا الى العدالة الاجتماعية ، وندد باستئثار أصحاب الاقطاع بخيرات الأرض وحرمان الفلاحين المنتجين من حقهم فيها ، وعانى في سبيل ذلك ، وتحمل الأذى ، والنفي من بلدته (دوما) . وقد غرس في نفس تلميذه دهمان البذور الطيبة العلمية والاصلاحية لتنبت أحسن نبات وأنماه .

ولكنّ الأستاذ دهمان لم يكتف بما حصّل ، وأكبّ على القراءة والمطالعة حتى غدت ديدناً له وعادة ، فألِفَ الكتبَ وأحبّها ، وواصل الدرسَ والقراءة ، « واتكأ على نفسه ، ليبلغ بثقافته المستوى الذي كان يتشوف له ، وشقّ طريقه الصعب وحده ، ينهلُ من الينابيع ، يحرّقه لاستكمال المعرفة ظمأٌ لايرتوي »[٦] .

---

(٢) تاريخ علماء دمشق ٢ : ٦٠٥ ـ ٦٠٨

(٣) تاريخ علماء دمشق ٢ : ٧٢٠ ـ ٧٣٢

(٤) تاريخ علماء دمشق ١ : ٤٢٩ ـ ٤٣٠

(٥) تاريخ علماء دمشق ١ : ٤٢٢ ـ ٤٢٤

(٦) مقدمة كتاب علم الساعات : ٤ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتنوعت ثقافة الأستاذ دهمان واتسعت معارفه لكثرة قراءاته وشدة تتبعه وتدقيقه : اطلع على العلوم الدينية وعلوم العربية ، وتعلق بعلم التاريخ ، وشغفته مدينة دمشق بآثارها وأوابدها ومساجدها ومدارسها ومكتباتها وجبلها قاسيون : « كانت دمشق ومازالت كل دنياي »[٧] فعُني بها ووقف لها كثيراً من جهده ووقته .

واذا تتبعتَ ماقام به الأستاذُ دهمان راعك فيه هذا النشاط والدأب ، لاتعرفُ همّتُه التعبَ ولا الكلال ، ولا يَهِنُ عزمُه أمام الصعاب والعقبات . تراه متفائلا أبدا ، جاداً مندفعاً لايتوقف . وتستطيع أن تتبين أن أعماله تدور حول قطبين يرتبط أحدهما بالآخر :

أولهما : نشرُ العلم والمعرفة ، وإحياءُ التراث الأصيل ، والكشفُ عن مآثر الحضارة العربية .

والثاني : دعوةٌ الى التقدم ، واستشفاف روح المستقبل ، ومحاربة الخرافة والبدع ، والعمل على اجتثاث التخلف والجمود .

تصدّى في مطلع شبابه مع أصدقائه الذين يشاطرونه الرأي لتلك الدعوة المسمومة التي نادت بهجر المدارس ومحاربة العلوم ، فكتب في الصحف وخطب منددّاً مسفِّهاً ، ودعا الطلابَ الى بيته يعلّم ويوجّه ، وناله في سبيل ذلك من الأذى ماناله . ولم ير بدّاً من أن يتابع طريقه ، فأصدر مجلة (المصباح) منبراً لآراء دعاة العلم والاصلاح ، وكتب في مجلة التمدن الاسلامي ، ومجلة مجمع اللغة العربية (مجلة المجمع العلمي العربي آنذاك) .

وأسس مكتب الدراسات الاسلامية في المدرسة العادلية الصغرى ،

(٧) في رحاب دمشق : ٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأخذ هو وطائفةٌ من كبار رجال الفكر والثقافة والآداب يلقون محاضرات في الأدب العربي والثقافة الاسلامية[٨] ، كذلك فقد حاضر في ردهة المجمع العلمي العربي .

ورأى من الوسائل المجدية لمحاربة الخرافة والجمود نشرَ الكتب الأصول محققةً مقرَّبةً الى الناشئة ، فأصدر :

١ ـ كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري (دمشق ١٣٤٥ هـ) .

٢ ـ وكتاب مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي (دمشق ١٣٤٧ هـ)[٩]

٣ ـ وكتاب سنن الدرامي (دمشق ١٣٤٩ هـ)

٤ ـ وكتاب البدع والنهي عنها لمحمد بن وضاح القرطبي (دمشق ١٣٤٩ هـ)

٥ ـ وكتاب المقنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (دمشق ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م) .

ثم ألّف في هذا الباب كتابه : دراسات في الثقافة الاسلامية (دمشق ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م) تناول فيه علوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وعلم التوحيد والكلام ، وأصول الفقه ، بأسلوب سهل ميسّر واضح ، فقرّبها الى القراء ، وأخذ بيدهم ليمضوا في الطريق اذا شاؤوا الاستزادة .

---

(٨) دراسات في الثقافة الاسلامية : ٥ ـ ٦

(٩) كتاب منهاج القاصدين للامام عبد الرحمن بن الجوزي ، اختصره من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي . ثم اختصر ابنُ قدامة المقدسي كتاب منهاج القاصدين لابن الجوزي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتوفر الأستاذُ دهمان على دراسة التاريخ ، وتاريخ دمشق خاصة ، وجعل ذلك همّه وشغله الشاغل ، فحقق وألّف كتباً جوّدها وأتقنها حتى كانت الغاية في الدقة . « إنه يقف في طليعة أولئك العلماء العارفين بتاريخ دمشق وخططها ، يتمثل صورتها القديمة ، ويعايش أحداثها وتاريخها ، ويقصُّ عليك من أنباء آثارها وماضيات أيامها حديث المتقن الفطن الذي جهد واستقصى ، وأوعب واستوفى »[١٠] .

مما حققه من المؤلفات التي عرضت لتاريخ دمشق فقدمها ميسرة سائغة للواردين :

١ ـ مدارس دمشق للإرْبِلي (دمشق ١٩٤٧ م)[١١]

٢ ـ المروج السندسية (الفسيحة) في تلخيص تاريخ الصالحية لابن كنّان (دمشق ١٩٤٧ م)

٣ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون الصالحي (دمشق ١٩٤٩ ـ ١٩٥٦ م)

٤ ـ المجلدة العاشرة من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (دمشق ١٩٦٣ م)

٥ ـ إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لابن طولون الصالحي (دمشق ١٩٦٤ م) .

٦ ـ رحلة الأمير يشبك الدوادار (دمشق ١٩٨٦ م) (العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك) .

وتحقيقاتُ الأستاذ دهمان وتعليقاته التاريخية والأثرية تجلو لك صورته حقا ، إنها صورة الأستاذ المحقق المؤرخ النقادة النافذ البصيرة ،

---

(١٠) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٥ ص ٨٤٤ .

(١١) أدرج الكتاب بعد ذلك في كتابه (في رحاب دمشق) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستحضر الماضي بكل جوانبه ، ويتمثل ناسه بعواطفهم وأفكارهم ومطامحهم ، ويتقصى ويتدبر وهو يتحرى الكشف عن الأسباب والدوافع . مازلتُ أذكر ماأحستُ به وأنا أطالع كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الذي حققه . وكان مما قلته آنذاك في كلمة لي : « ..... وتبدّى لي الشيخُ رائعاً حقاً ، بدقته وغزارة علمه وكثرة مراجعه وإحاطته بموضوعه ومعرفته بدمشق ومواضعها القديمة حتى لكأنها بين يديه يتخيّلُها بأسواقها وناسها وحركتها الدائبة وقصورها وجوامعها وأبوابها وأنهارها وكل مايحيط بها . يَضُمُّ الى ذلك رؤيةً بصيرة ناقدة تتبين روح العصر ، وتؤمن بالتقدم ، وترنو الى المستقبل . إنه شديد الحرص على الآثار الروائع ، يؤذيه ماأصابها من إهمال ، فهو يدعو لحفظها وصونها من عبث العادين عليها ، ولا يتمالك أن ينال بوخزاته اولئك المرائين المتظاهرين بالورع ، يخفون في أنفسهم من الجشع مالا يبدون ، وأن يُنددَ باولئك المقصرين في واجبهم لايبالون المصير الذي يتهدد أوابد دمشق وتحفها الخالدات ... »[١٢] .

وقد شَفَع الكتابَ المحقَّقَ بمخطّط الصالحية ومواقعها الأثرية ، وهذا وحده من روائع المنجزات التي تدلّ على ماينطوي عليه الأُستاذ دهمان من حب المعرفة ، وإيثارها ، وما يبذل من الطاقة والجهد ، وما يتحلى به من الصبر والدأب لتحقيق مايطمح اليه من الدقة وبلوغ الحقيقة ، ووضع لبنة جديدة في صرح تاريخ دمشق وصالحيتها .

لقد كان رحمه الله متأنياً ، يروّي في عمله ، لايتسرع ولا يعجل ، ولا يصدر الحكم إلا بعد طول تأمل . قضى في تحقيق القلائد الجوهرية ووضع المخطط زهاء عشر سنوات فأعطى من بعدها العطاء الكريم .

(١٢) مقدمة كتاب علم الساعات : ٤ ـ ٥ م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويضمُّ الأستاذُ دهمان في أغلب الاحيان الى تحقيقاته وتعليقاته الدقيقة مقدماتٍ تحلّل مضمون الكتاب ، وتكشف عن مراميه ، وتدلُّ على موقعه من الكتب التي تماثله ، وتبرز مكانة مؤلّفه العلمية . ويضيف الى ذلك حيناً نصوصا نادرة تكمل موضوع الكتاب وتسدُّ نقصه . ومن أوضح الأمثلة لهذه الخطة التي ارتضاها الاستاذ دهمان في التحقيق كتابُه رحلة الأمير يشبك الدوادار .

فقد عرَّف بالمخطوطة والمؤلِّفِ محمد بن محمود الحلبي ، ثم وطَّأ للنص المحقق بتمهيد ذكر فيه تاريخ الإمارة الدلغادرية (ص ١٩ ـ ٣٠) ، وأضاف للكتاب المحقق عدة نصوص تعينُ على فهم الرحلة وتكشف عن مقصد صاحبها ، وتجيب القارئ عن كثير من الأسئلة التي تطرحها الرحلة . (ثورة شاه سوار/ص ٣١ ـ ٦١ ، طمع الدول المجاورة بالمماليك/ص ١٦١ ـ ١٧٧ ، تردي العلاقات بين المماليك والعثمانيين/ص ١٧٩ ـ ٢٠٠ ، تحسن العلاقات بين الدولتين المملوكية والعثمانية/ص ٢٠١ ـ ٢٢٦ ، النزاع بين المماليك والعثمانيين ص ٢٢٧ ـ ٣١٠) .

والى جانب تحقيقات الأستاذ دهمان وتعليقاته الرائعة المفيدة فقد كتب وحاضر في تاريخ دمشق التي استهوته واستفرغت جُهْدَه ووُكْدَه ، وحبَّر مقالاتٍ قيمةً في وصف مساجدها ومدارسها وقبابها ومحلاتها وتُرَبها وآثارها ، كما تحدث عن جوانب من حياتها العلمية ونظمها الادارية ...

وقد ضم كتابُه : في رحاب دمشق (دمشق ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م) جزءاً من هذا النشاط العلمي .

أما الجامعُ الأموي فقد بذل له من اهتمامه ماجعله يفرده بكتابٍ على حدة .

وخصَّ الاستاذُ دهمان عصرَ المماليك في دمشق بعناية خاصة ، فقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أدرك مالهذا العصر من أهمية بالغة تتطلب الدراسة والتحليل[١٣] ، وألف في ذلك كتابه : ولاة دمشق في عهد المماليك (دمشق ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م) واستهلّ الكتابَ ببحث ضافٍ تحدث فيه عن المماليك وجهاز حكومتهم في القاهرة ودمشق[١٤] .

وتتجلى في كتابات الأستاذ دهمان صفاتُ المؤرخ النزيه الثقة ، ذي النظرة الثاقبة النافذة . يقول : « من ينابيع المعرفة التي نهلْتُ منها في ظلال دمشق كان عطائي العلمي . فما أعطتني إياه هذه المدينةُ الخالدة من علم وتجارب وصور ، قدمتُهُ دراساتٍ وبحوثاً لم أتوخَّ منها إلا أن تكون مرآة صادقة لتراث دمشق وتاريخ دمشق ونذرت نفسي للتعريف العلمي الصادق بدمشق ... »[١٥] .

وكان له الموهبة الفذة في استحضار صورة الماضي حيةً ، واستشفاف الأسباب الخفية العميقة التي كانت تحرك الأحداث ، والتعرف الى الدواعي التي تكمن وراء نسج الاساطير وحوك الخرافات وأحاديث الأسمار .

يتحدث عن جبل قاسيون وما حيك حوله من أساطير ، وما وُضع له من أحاديث ، فيفسر الأسباب النفسية العميقة التي تستتر وراء هذه الأساطير وتلك الأحاديث ، والتي تشفُّ عما كان يخالج أهل دمشق من حب عميق لبلدهم ، وتعلق شديد بوطنهم ، يدفعهم للمفاخرة به ، والاستماتة في الذود عنه ، وتشويق الناس لزيارة أرضهم المقدسة التي

---

(١٣) إعلام الورى : ٥ ـ ٧ ، مجلة الثقافة الاسلامية ، ع ١٥ (١٤٠٨ هـ) : ٢٨٢ ـ ٢٨٤

(١٤) ولاة دمشق في عهد المماليك : ٦

(١٥) في رحاب دمشق : ٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضمت من الفضائل ما جعلها رابع المدن المقدسة[١٦] .

ويذكر وصية الملك الظاهر بيبرس أن يدفن على الطريق السابلة قريباً من داريا ، ولكن الملك السعيد يأبى ذلك ، ويبتاع دار العقيقي ليجعلها مدفناً لأبيه .

لم يمرّ المؤرخُ الفطن النقادة بهذا الخبر مروراً عابراً ، بل وقف يحلّله ، ويكشف عن بواعثه الخفية التي جعلت الملك السعيد يخالف وصية أبيه ، ثم يجلو لك ما يستتر وراء هذه المخالفة . إنها رغبةُ الملك السعيد ورغبة المماليك جميعا أن يظهروا في عيون الناس أنهم أصحاب الحكم الشرعيون ، وأنهم ورثةُ الأيوبيين ، لا مماليكُ اغتصبوا السلطة من أسيادهم دون وجه حق ، بل إن لهم من شرعية الملك وأبهته ما لهؤلاء الملوك الأيوبيين . ومن هنا أراد الملكُ السعيد أن يدفن أباه في بقعة تحيط بها قباب أعاظم الملوك الأيوبيين : السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك العادل والملك الأشرف[١٧] .

ومن نشاط الأستاذ دهمان في التاريخ العام توفُّرُه على تحقيق كتاب (إنباء الغمر بأنباء العمر) لابن حجر العسقلاني نشر جزأه الأول (دمشق ـ ١٣٩٩ هـ) مع مستدركات عبد الباسط الحنفي ومحمود العيني ، واستطاع بما بذل من جهد أن يجلو الكتاب أقل خطأ وتصحيفا[١٨] .

ومن نشاطه كذلك إشرافه وتعليقاته المفيدة على ترجمة كتاب الدول الاسلامية (دمشق ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥ م) لستانلي لين بول ، مع اضافات بارتولد وخليل أدهم . والكتابُ ثبت قيّم سرد فيه صاحبُه الدولَ

(١٦) في رحاب دمشق : ١١ ـ ١٢

(١٧) في رحاب دمشق : ١١٥ ـ ١١٦

(١٨) أنباء الغمر ١ : ١١ م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسلامية مستفيداً من النصوص التاريخية ، ومن الكتابة على المسكوكات النقدية . وهو في ذلك يشابه في بعض الوجوه معجم الأنساب لزامباور .

ويُضَمُّ الى ذلك النشاط كتابُه معجم الألفاظ التاريخية ، وقد عرض فيه للألفاظ التي شاعت في نظم الادارة وكتب التاريخ في عصر المماليك ، وفسرها ، وذكر أصولها ومآخذها[١٩] .

ويتفرد الأستاذ دهمان رحمه الله بعمل فذّ هو تحقيقه لكتاب علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد الساعاتي . لم يكتف بتحقيق الكتاب على جلالة ذلك ، بل سارع كعادته في نِشْدان الكمال ، فذيَّله بمقالاتٍ لارشميدس وسواه في الساعات ، ثم قدَّم له بمقدمة ضافية تبلغ نحو مئة صفحة ، تحدث فيها عما قام به العرب والمسلمون في صناعة الساعات ، وَوَصَف جملةً من الساعات العربية ، وذَكَرَ المشهورين من المهندسين الميكانيكيين العرب .

لقد كان الاستاذ دهمان في حياته ومسلكه قدوة ومثلاً . كان واسع الأفق ، حرَّ التفكير ، دعا الى التفلت من إسار الجمود والتخلف ، ووقف نفسه للعلم والتعليم زهاء سبعين عاما . كان متفائلاً أبدا ، تطالعك في بُرْدتيه عزيمةٌ لاتعرف الكلال ، وصبرٌ لاتخالطه السآمة . لم تلن قناته يوم زحفت اليه الأسقام ، وضعف بصره ضعفاً شديداً ، بل ظلَّ كالعهد به ، يتحدث اليك عن أعماله ومؤلفاته ، وعما أنجزه وما يزمع إنجازه من مشروعات ملكت عليه نفسه ، واستأثرت بجهده واهتمامه ، فتنفذ كلماتُه الى قلبك بصدقها ، وتُكْبر فيه هذه الحماسة ، وهذا التصميم .

لقد نذر نفسه للعمل الجادّ النافع ، دأب عليه في صمت وتواضع عرف بهما ، وقدَّم لبلده خير ما عنده .

---

(١٩) مجلة الثقافة الاسلامية ، ع ١٥ (١٤٠٨ هـ) : ٢٨٢ - ٣٠١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد شعر بالرضا كلّ الرضا ، وبالتقدير أجمل التقدير يوم أقامت وزارة الثقافة له ولصحبه الثلاثة في الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٨٣ م حفل تكريم ، ومنحوا أوسمة الاستحقاق السورية من الدرجة الاولى ، مشفوعة بكلمة السيدة وزيرة الثقافة التي جاء فيها : « لتكن هذه الأوسمة بعضاً من تقدير هذه الأمة لمفكريها ، وبعضاً من التكرمة والوفاء من هذا الشعب لمؤرخيه » .

وأجاب الاستاذ دهمان بلسان الشكر : « كم أطيبُ اليوم نفساً بهذه البادرة الكريمة في حفل تكريمٍ رعاه قلبُ قائد عظيم : الرئيس حافظ الأسد ، فقد عَرَفَ قدرَ العلم فكرَّمَ أهلَه ، فكان لي من ذلك أسمى الفخر .... »[٢٠]

وظل الأستاذ دهمان الفارسَ المُعْلِمَ في الساحة ، لم يترجَّلْ حتى وافاه اليقين في يوم الاثنين ٧ / ٣ / ١٩٨٨ ، فجزاه الله خير الجزاء وأوفاه . إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب .

(٢٠) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٨ (١٩٨٣ م) : ٦٣٧ ـ ٦٤١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net